الشيطان

ألا تعلمين انّ ابن مريم طاهرٌ فلا يستجيب الدهرَ آلَ الخطيئةِ
فحيدي اذًا عمّا عزمتِ فربما اذا ما رآكِ يتهرك بنفرةِ

الخاطئة

لأعلم حقًّا انه اطهرُ الورى به ابتدًا رفقٌ باهل الرذيلةِ
فهبا انني ادنو اليهِ ولا مرا ينيلُني من غفران ذنبيَ مُنيتي

*

فقامت اذًا والطيبُ معها · وأقبلت تسير سريعًا نحو ربّ الخليقةِ
وقد قرعت باب الرجا بأمانةٍ وحبٍّ فنالت منه اسعد حظوةِ
وخرّت على اقدامهِ غسلتهما بطيبٍ ثمينٍ ثمّ عادت ببهجةِ
فيا أيها المولى الذي بحنوّهِ محا كلّ ذنب من ذنوب الاثيمةِ
تلطّفْ بنا واغسل جميع ذنوبنا وامطر علينا سُحب حِلم ورأفةِ
فنهدي لك التسبيح ما ذرّ شارقٌ وما غرّدت في الأيك طيرٌ وغنّتِ

المذهب الدرويزيّ واصل الانسان

لحضرة الاب اسكندر طوران اليسوعيّ

حقيقة هذا البحث وتعريفه

كان لمذهب الماديّين في القسم الثامن من القرن التاسع عشر نهضةٌ سيّئة اثّرت في العقول وقد كان ظهورهُ في اثر مذهب الاباحيين او العقليّين الذين جاهروا بسيادة العقل وسلطتهِ العليا . وكلا المذهبين يتّفق في إنكار الوحي ونفوذ ما يعلو فوق الطبيعة بامور البشر واحوال الكون

امَّا الفرق بينهما فكون الاباحيين لا ينكرون وجود الله كالماديين ولكنَّهم لا يكترثون لوجوده ولا يرون حاجةً لعنايتهِ في تدبير العالم ويزعمون انَّ الانسان كما العالم في غنًى عنهُ تعالى اسمهُ وتبارك . امَّا الماديون فلا يكتفون بنكران العجائب والوحي وكلّ امور العالم العلوي وحقوق الله على البشر وعنايتهِ في سياسة الخلائق بل يجحدون اللاهوت وكلّ ما يفوق الطبيعة المادّيّة . ويدّعي ذوو المذهب المادّي انَّ اصل الانسان والحيوان يمكن اثباتهُ دون الله وانَّ المادّة الهيولَيّة ابدئيّة منها تكوَّنت كلّ المخلوقات ومواليد الطبيعة من جماد ونبات وحيوان دون استثناء الانسان وذلك بموجب سنَّة ترقّي المادّة : فالحياة على قولهم دخلت توًّا الى العالم بتوسّطها . وكذلك النفس البشريّة انَّما هي مجموع قوى الطبيعة الهيولَيّة التي تطوَّرت اطوارًا شتَّى فصارت اوَّلًا نباتًا ثم حيوانًا حتَّى بلغت طور الحيوان الناطق اعني الانسان الفهيم المدرك

فما الانسان الَّا نتيجة هذا الترقّي الذي سيزيد رقيًّا في مستقبل الزمان . وانَّما اجدادهُ فبعض الحيوانات العديدة الاجناس من ذوات الفقرات التي أنتسلتهُ كما أنسلتْ القرودَ اخوتهُ . واذا تحقَّق انَّ الانسان سليل البهيمة وانَّ اصل البهيمة من الجماد لا بُدَّ من القول انَّ ذلك المركَّب ينحلّ في الموت ولا يبقى اثر من كيانهِ فلا ثواب ولا عقاب . ومن ثمَّ ليس وجود للشريعة الادبيَّة في هذه الحياة وما لبني البشر الَّا ان يرشفوا في هذا العالم كأس اللذّات ويتمتَّعوا بمعظم الشهوات . هذه خلاصة مذهب الماديّين

وقد استند الماديّون في تأييد رأيهم عن جحود الاله والعالم الآخر الى مزاعم الذاهبين الى النشوء وارتقاء الكائنات بتطوّر احوالها وذلك مذهب الملحد لامرك (Lamarck) في القرن الثامن عشر فأشاعهُ دروين وعمَّمهُ في النصف الثاني من القرن السابق وقد بلَّغهُ هِكل (Hæckel) الالماني الى اقصى حدود الهيولَيّة . وربَّما دُعي مذهبُ النشوء بالمذهب الدروييني وان كان دروين ليس هو مبتدعهُ كما انعلم يستنتج منهُ نتيجة الكفران بالخالق كما سترى وانَّما الحصَّة التي تعود الى دروين وَضْعهُ للعوامل او الاركان التي على ظنّهِ تثبت مذهب الترقّي اعني الانتخاب الطبيعي والمجاراة الحيويّة وغير ذلك ممَّا سيأتي نقدهُ

*

ولو شئتَ تمهيدًا لما يدّعيه الماديّون والدروينيّون فادخل الى متحف من متاحف التاريخ الطبيعيّ حيث جُمعت امثلة او مساطر من كلّ اجناس الحيوان والحشرات المعروفة في العالم سواء كانت في الارض ام في الهواء او الانهار او المستنقعات حتى اعماق البحار مباشرةً باصغر الهوامّ وادنى الديدان والحيوانات النباتيّة البحريّة ثم الاسماك والطيور والزحافات الى اعظم الحيوانات ذوات الاربع البرّيّة واكبر حيتان البحر

وهذه المجاميع المختلفة قد نُظمت وقُسمت تقسيماً لطيفاً على موجب ما بين الاجناس والانواع من التشابه فترى ذوات الاثدي وحدها والطيور وحدها وكذلك الزحافات وهلمّ جرًّا . فهناك الرُّتب العليا ثمّ الاجناس ثمّ الانواع يمثلها احد الافراد الدالّ على خواصها العموميّة ثمّ مميّزاتها العائليّة والجنسيّة . وكلّ ذلك على مقتضى التناسب التي اصطلح عليها العلماء بعد الفحص المدقّق

وفي المتاحف التي كلامنا عنها لم تُعرَض فقط الحيوانات المعروفة في زمننا بل هناك ايضاً امثلة لاشكال متعدّدة قد فُقدت من الكون وانّما وجدوا في طبقات الارض العميقة بعض مستحجراتها فعرضوها مع الاجناس الموجودة حالًا على وجه البسيطة ونظموها في سلكها على مقتضى ما فيها من الخواصّ التي تقرّبها الى الاجناس والانواع الحاليّة

على انّ اكبر المتاحف التي تُعرَف اليوم مهما تعدّدت معاهدها وغُرفها ومقاصيرها لا تكفي لان تحصر جميع الحيوانات المعروفة ولا النباتات ولا المستحجرات . لانّ عدد تلك الاجناس التي وقف عليها العلماء تبلغ اليوم ٢٨٠،٠٠٠ منها مجنّحة بجناحين ومنها ذات اربعة اجنحة جلديّة ومنها غِلافيّة الاجنحة او متناسقة الاجنحة او نصفيّة الاجنحة يضاف اليها عشرون الفاً من الفصيلة العنكبوتيّة هذا ما عدا ثمانية الاف من الديدان وخمسون الفاً من الهُلاميّات ولا يقلّ عدد ذوات الفقرات عن خمسين الفاً منها الطيور (٣٠،٠٠٠) والحيوانات المائيّة البرّيّة (٢،٠٠٠) المُشوكة (٣،٠٠٠) ذوات اثدي مختلفة (٧،٠٠٠) . امّا الحيوانات الاهليّة فهي زهاء مائتين فقط (١

وكما اعتبرنا متحفاً للحيوانات نستطيع ان نتخيّل متحفاً آخر جُمعت فيه كلّ

(١) ورد هذا الاحصاء في مجلّة كوسموس (Cosmos, 3 Oct., 1912)

نباتات المصور من ادقّ الطحالب الى اعظم الاشجار العادية سواء تجدها اليوم على سطح الارض ام استُخرجت من طبقاتها الباطنة في جملة المستحجرات وكلها ايضاً منظّمة حسب رتبها واجناسها وفصائلها

فاذا قام انسان عاقل بازاء هذه الجاميع المختلفة من الحيوانات او النباتات التي تجري في عروقها او جرت سابقاً مياه الحياة لا بُدَّ ان يخطر على فكره هذا السؤال: ليت شعري من اين استمدّت هذه الكائنات حياتها وكيف تشعّبت فيها شُعَب الحياة فظهرت على هذه الهيئات المتعدّدة التي ندعوها نباتاً او حيواناً ؟ من اين لسلاسلها هذا السياق العجيب فتتشابه من عدّة وجوه مع اختلافها في خواصّ اخرى ؟ أفيا تُرى يجوز ان نَنسب ذلك الى الصدفة والى الطبيعة العمياء او بالحري الى عاقل ناطق يدلُّ عليه ما فيها من الترتيب وحسن البنية والصورة ؟ وبالاجمال من اين اتى هذه الكائنات ذاك المبدأ المحيي الذي انفذ فيها الحياة ؟

فان طلبت جواباً على هذه الاسئلة اختلفتْ عليك الاجوبة على اختلاف ذوي المذاهب السابق ذكرهم . فانَّ الوحي يجيب بلا تريُّث : انَّ حياة المخلوقات المذكورة بل كلّ مبدأ حياة من الله وحده الذي لم يخلق فقط السماء والارض بل دبّر ونسّق ورتّب كلّ شيء بنظام عجيب كلًّا حسب طبقته من نبات او حيوان او انسان ناطق

أما دروين فيجيب ايضاً ان الله هو مُبدع الحياة لكنَّهُ لم يُبدع كلّ هذه الانواع رأساً وانّما خلق منها في بَدء الخليقة بعض افراد النبات او الحيوان فجعلها كأمثلة اوّلية تكوّنت على صورتها الاجناس والانواع بتنادي الاجيال على موجب سنّة الترقّي الطبيعيّ بقوّة العوامل التي سبق التلميح اليها

أما هِكسل قائله يجيب مستنداً الى مذهب دروين في الترقي مع نفيه كلّ عامل خارج عن الطبيعة فيقول بكل وقاحة: دعوا الله على جنب فانَّهُ اسمٌ بلا مسمًّى اما المادّة فانّها ازليّة ولا تحتاج الى من يخلقها وكلُّ ما يُرى في الارض انّما هو من منشآت المادّة اصلًا فالحياة ظهرت اوّلًا على الارض بصورة بسيطة جدًّا على شبه خليّةٍ مفردة ثمَّ نمت هذه الخليّة تدريجاً وتحوّلت الى هيئاتٍ مختلفة لا تُحصى مع طول الاجيال الى ان بلغت اخيرًا الى كمال الانسان . فاصل الحياة وكلّ حياة من المادّة والمادّة ازليّة . فهذا مذهب الماديين او الدهريين

فاين الحقيقة يا تُرى بين هذه المذاهب المتنافية ؟ وماذا يقول العلم الصحيح بازاء هذه الآراء المتناقضة ؟ ايلزمنا قول الاديين المولّه للطبيعة ؟ او نكتفي برأي دروين او نرجح مزاعم العقليين ؟ او بالحري نؤيد ما اوحى بهِ الله في كتبهِ المنزلة عن تكوين العالم مع التوفيق بينهُ وبين ما ثبت للعلماء الثقات بابحاثهم الصادقة؟

ما يفيدنا الوحي والعلوم الطبيعية عن اصل الكائنات

١ الوحي

انَّ تعاليم الوحي لا تدع لنا ريباً في اصل الموجودات فان سفر التكوين يفتتح كلامهُ بقولهِ : « في البدء خلق الله السماء والارض » ثم يذكر انفصال المياه من اليابسة ويردفهُ بقولهِ تعالى: «فلتنبت الارض نباتاً واشجاراً» حتى اذا بلغ الى اليوم الخامس يقول: « فلتفض الارض نفوساً حيَّة على حسب انواعها ... اي الحيوانات» ويختم بقولهِ تعالى: «فلنصنع الانسان على صورتنا وشبهنا »

ولحسن ادراك رواية الكتاب المقدَّس لا بُدَّ من القول بانَّ موسى في وصفهِ لتكوين الخليقة لم يقصد بهِ وضع مقالة علميَّة في مبادئ المبروءات وانَّما غايتهُ كانت اوَّلاً ان يثبت شعبهُ في معرفة الاله الحقيقيّ الذي اخرجهُ من ارض مصر ويبعدهُ عن عبادة الاوثان التي سقطت فيها الامم المجاورة لبني اسرائيل . وثانياً ان يجعل سنداً للاسبوع الاسرائيليّ مع تخصيص احد ايَّامهِ لخدمة الله اي السبت . فاذا انعمتَ النظر في رواية الخليقة في موسى وجدتَهُ مقرِّرًا لعبادة الاله الحقّ فيصف وحدانيَّتهُ وازليَّتهُ وتكوينهُ لكل ما هو خارج عنهُ نافياً بذلك ازليَّة العالم وموجباً استخراجهُ من العدم ثم يسرد موسى بالتوالي بازاء شعبهِ تفاصيل الخلائق التي أبدعها الله بقدرتهِ اعني السماء والارض مادَّة العالم ثمَّ الشمس ثم البحار والبيس ثم كواكب السماء ثم النبات ثم حيوان البحار (الاسماك) والسماء (الطيور) والارض (الدبَّابات) ثم الانسان خاتمة اعمالهِ عزَّ وجلَّ . وبذلك يتحتَّم على الانسان ان يعبد ربَّهُ وحدهُ وخالق العالم بأسرهِ

امَّا تقسيم الخليقة في ستَّة ايَّام او بالحري في ستَّة اطوار من الاجيال فانَّ معظم المفسّرين يرون في ذلك صورة السبَّة التي يعقب ايَّامها الستَّة يومُ راحة كما انَّ الله بعد خلقهِ في الستَّة الايَّام كفَّ عن العمل في اليوم السابع وهذا ما صرَّح بهِ الله في

اعلانه براحة يوم السبت على طور سينا حيث قال (خروج ٢٠: ١٠-١٢) « في ستّة أيام تعمل ... واليوم السابع سبت للربّ الهك لا تصنع فيه عملًا ... لانّ الربّ في ستّة أيام خلق السماوات والارض ... وفي اليوم السابع استراح ولذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسهُ »

قلنا انّ موسى لم يقصد في رواية تاريخ الخليقة كتابة فصل علميّ على انّهُ في وصفه هذا قد أحكم ترتيب انشاء العالم وتوالي المخلوقات بنظام موافق لغايتها فانهُ يذكر اوّلًا تكوينهُ تعالى للاستعدّات واركان المادّة اجمالًا ثم يبيّن عمل الله بخلقه اقسام العالم وتنظيمها في ستّة ازمنة يدعوها ايّامًا. والامُ سنة عند الله كما يقول الكتاب كيوم من أيام البشر. ومرجع هذه الاعمال الى ثلثة امور تحقّقها علماء الطبقات الارضيّة: الاوّل انّ النباتات سبق في الخليقة وجود الحيوان في البحر والبرّ (وهذا ما روى موسى في اليوم الثالث). والثاني انّ ظهور الحيوان في البحار والطيور في السماء سبق وجود الحيوان على الارض (روى موسى ذلك في اليوم الخامس). والثالث انّ الحيوان انتشر بعد ذلك في الارض وكان الانسان خاتمة مخلوقات الله (وهذا عمل اليوم السادس في سفر موسى). فما كفى بتعيين هذه الاطوار الثلثة بسياقها دون ان يصرّح بما طرأ عليها بتوالي الدهر من النموّ والكمال سواء كان ذلك بتوسّط الخالق وتكوينهِ لمخلوقات جديدة ام بفعل النواميس التي وضعها في اوّل الخليقة ولم يُوحِ بها في الاسفار المقدّسة

قال الكردينال بيليو اليسوعيّ في تفسيره الفصل الاوّل من سفر التكوين (في مجلّة الابحاث Etudes, 5 Nov. 1918) ما ملخّصهُ: انّ بين مرويّات موسى في سفر الخليقة امرًا من شأنهِ ان يستوقف نظرنا وهو انّهُ ذكر هناك ايّامًا لا تُقاس بحركات الشمس او بكوكب آخر وانّما حدودها زمنُ الأعمال الذي يوافقها وبهِ تمتاز فيبتدئ كلّ عمل من اعمال الخالق ثمّ ينمو ويمتدّ الى ان يبلغ كمالهُ وذلك في مدّة اجيال لا يعرفها الّا الله ولا ينطبق عليها قسم من اقسام زماننا الحاضر. وما هذه الايّام الّا اطوار العالم المختلفة التي وقفت عليها العلوم الحديثة ولاسيّما علم طبقات الارض الذي لا دخل لهُ فيما رواهُ موسى في اليومين الاوّلين وانما ابحاثهُ تبتدئ مع ما ذكرهُ في اليوم الثالث عن الارض حيث اخذت الرواسب تحطّ في قعر البحار

فامكن الحياة ان تظهر وتنشأ على قشرتها بعد ان بردت نوعاً حرارتها الطبيعية . فمن قابل بعد ذلك بين المعلومات الجيولوجية الثابتة ورواية موسى يأخذه العجب من توافقها وذلك مباشرةً بأوّل تركيب البحار واليابسة كما رواه في اليوم الثالث مع ما ورد هناك من ذكر نشوء النباتات والاشجار الجبّارية التي منها تكوّنت تلك المستودعات الفحمية التي استمدّت منها الصناعة العصرية قوتها المحرّكة . وكذلك اليوم الرابع يوافق ما يثبته الجيولوجيّون عن تقسيم الحرارة والنور نهائياً في نظامنا الشمسي وبه ينتظم اختلاف الاقاليم ولاسيما اليوم الخامس الذي فيه جاء وصف ظهور طبقات الحيوان تدريجاً على وجه الارض اعني الحيوانات البحرية اوّلاً ثمّ البرّية وفي آخرها كلها الانسان .

هذا ما يُستخلص من رواية موسى . لكنّ هناك مشاكل اخرى لم يتعرّض لها منها مسألة تكوين كلّ نوع من انواع النبات والحيوان فهل خلقها الله منذ البدء او بازمنة معلومة بخواصها الجنسية فبلغت الينا بالتناسل كما خُلقت اوّلاً مع ما دخل عليها من الاختلافات العرضية المستتبة عن طوارئ الزمان والمكان وغير ذلك من العوامل الطبيعية ؟ او يقال بالاحرى انّ الله خلق اوّلاً بعض الاجناس الاصلية وأمثلة الرُتب النباتية والحيوانية فهذه الاجناس وهذه الامثلة التي اصطلح عليها العلماء الطبيعيّون في كتبهم المدرسية قد تحسّنت ونمت وتكاملت على مدى الدهور بما طرأ عليها من العوامل الطبيعية كحصرها في اقاليم مختلفة واغتذائها بأغذية شتّى لم تزل تتحوّل من تلقاء ذاتها من جنس الى جنس ومن فصيلة الى اخرى كما نراها في عالمنا الحاضر او في بطون الارض بين المستحجرات ؟

فهذان الحلّان لمشكل تكوين الانواع محتملان ولم تصرّح الاسفار المقدّسة بواحد دون الآخر كما انّ الكنيسة الكاثوليكيّة لم تحتم باحدهما . فتبقى المسئلة علميّة لا تمسّ الايمان بشيء . نعم انّ مفسّري الاسفار المقدّسة الى اواسط القرن التاسع عشر كانوا يرجّحون الرأي الاوّل اي تكوين الله رأساً لكل نوع من انواع الحيوان والنبات وبلوغها الينا ثابتةً كما خلقها الله وهكذا كانوا يفهمون قول الكتاب انّ الله خلق النبات والطيور والبهائم « كلًّا حسب اصنافه » لكنّ ترقّي العلوم الطبيعية كعلم طبقات الارض وعلم العاديات وعلم النبات وعلم الحيوان استدعى كثيرين من

العلماء حتى من الكاثوليك الى القول بالرأي الثاني اي بتكوين الامثلة الاصلية الاولى ثم بترقي الاجناس وتحولها بفعل العوامل الطبيعية مع طول الزمان

والكنيسة تطلق الحرية للقائلين باحد هذين الرأيين بشرط ان يبقى فعل الخالق مصوناً في تكوينه للاجناس الاولية التي منها تفرعت بقية الاجناس . اما تكوين الانسان اي الابوين الاولين بفعل الخالق فان الكنيسة بلسان اللجنة الكتابية المعينة لتفسير الكتاب المقدس رسمياً امرت باعتبار رواية موسى حسب منطوقها الحرفي وان لم تحتم شيئاً بخصوص نوع تكوين الانسان وذلك في تاريخ ٣٠ حزيران سنة ١٩٠٩

٢ ـ العلوم الطبيعية

فلننظرنَّ الآن ما تفيدنا العلوم الطبيعية بخصوص نشأة المخلوقات وانواعها ونعارض معلوماتها بما استفدنا من الكتب المقدسة

كل يعلم انَّ العلوم الطبيعية في فروعها المختلفة قد ترقَّت ترقياً عظيماً في غضون القرن التاسع عشر . وكثيراً ما ساعد على ذلك سهولة الاسفار والمواصلات بين انحاء العالم المختلفة والابحاث الجيولوجية ودرس الطبقات الارضية في عدة اقطار ثم قابلوا بين معلومات تلك الابحاث ودوَّنوا نتائجها فوجدوا في كل طبقة من طبقات الارض التي رسبت فوق ركنها الاصلي بتوالي الاجيال بقايا نباتات وحيوانات شتى وربما وجدوا فيها هياكل تامة سالمة من الحيوان ثم نباتات كاملة طُمرت قديماً وقت ازدهارها على الارض او في اعماق البحر . وقد اتَّصلوا الى بيان ترتيب تلك الطبقات الارضية ومنها الى تعريف الازمنة التي فيها طُمرت تلك الكائنات . أجل انهم لم يستطيعوا تعيين عدد السنين التي بها تكوَّنت كل طبقة لكنهم اثبتوا ترتيب تلك الازمنة مع ما تقدَّم من مواليدها وما تأخر

ومما سهَّل ايضاً إحراز هذه العلوم ما أُنشئ في حواضر البلاد من المتاحف فبفضل المواصلات بين سائر البلاد تمكَّن كثيرون من جمع اصناف الحيوان وضروب النبات منها حيةً ومنها مستحجرة فتولَّوا ترتيبها على طرائق علمية راهنة فاثبتوها على حسب رُتبها واجناسها وانواعها وفصائلها لتظهر للعيان حلقاتها واتصال بعضها ببعض بحيث يحسب الناظر انهُ يطَّلع على مشاهد الطبيعة ومواليدها العمومية بل يرى خلاصة الكائنات المنبثَّة على وجه الارض

فكلّ هذه الوسائل أدّت بالعلماء الى وضع معلومات ثابتة يمكن الاستناد اليها ومقابلتها مع المعلومات المستفادة من الاسفار المقدّسة

فالشائع اليوم بين ارباب الجيولوجية انّ الارض كانت في اوّل تكوينها كرةً نارية بردت شيئاً فشيئاً ثمّ جمد سطحها الّا انّ هذا السطح تكيّف على مدى الدهور بتكيّفات متتالية تُرى آثارها الى يومنا. وكثيرًا ما تغيّرت هيئتهُ في نتوآته وجباله واوديته وعلى الخصوص في القرون الاولى بفعل الانفجارات البركانيّة وتراكم البرور الخ فكانت الطبقات المغمورة بمياه البحار ترتفع فيصير بعضها اقطارًا برّيّة وبعضها جزائر. وتكوّنت في بعض الجهات سلسلة اطواد شاهقة وفي غيرها على خلاف ذلك اصبحت اغوارًا عميقة غمرتها مياه الاوقيانوس

ولم تبق القارّات الثابتة على حالتها بل طرأت عليها العوامل الجوّيّة كالرياح والامطار واليبس والثلوج والجليد فلم تزل تفتك بها حتّى اثّرت في كيانها تأثيرًا عظيماً. ومثلها السيول الجبليّة والمثالج والانهار وامواج البحر فانّها كلّها بقوّة احتكاكها وصدماتها غيّرت هيئة الارض فكانت السيول والانهار تحفر التربة وتجرفها وتدفعها الى البحر حيث كانت ترسب في قعره وتطمر تحت امواجها بقايا النبات والحيوان الماحر لها

ولنا على ذلك مثال خفيف في ما يحدث في زماننا مع اختلاف قوّة العوامل الجوّيّة وسَوْرة المياه في ذلك العهد القديم. فان علماء طبقات الارض يقوّمون الآن بستّة عشر كيلومترًا مكعّبًا على الأقلّ محصّل الأجرُف الارضيّة التي تحلّلها العوامل الجوّيّة وسيول المياه في كلّ سنة وتحفرها الى البحر. ويضربون على ذلك مثل نهري العراق اي الفرات ودجلة فانهما باجتماعهما في شطّ العرب ونقلهما الى بحر فارس ما يجرفان من التربة يدفعانهِ كلّ سنة خمسين مترًا عن سواحلهِ. وشطّ العرب بالنسبة الى كبار انهار اميركة والهند والصين يُعَدّ من صغار الانهار

فكل هذه الأجرف اذا بلغت قعر البحار رسبت فيها واختلطت بما يُجرَف معها من بقايا النبات وهياكل الحيوان وجثث الحيتان التي تموت في البحر والاصداف المختلفة فيتكوّن من هذه المجاميع طبقة من الطبقات الارضيّة التي يدعونها بطبقة الارض الرابعة

وعلى هذا المثال تكوّنت الطبقة الثانية من انحلال موادّ الطبقة الاولى ثمّ الطبقة الثالثة بتحلُّل الطبقتين الاولى والثانية

واذا افترضتَ انّ بعض الطوارئ الطبيعيَّة كالزلازل وغير ذلك ترفع يوماً بعدَ آلافٍ من السنين الى ما فوق سطح البحر تلك الطبقة الراسبة في قعره فانّ علماء ذلك الزمان سوف يجدون في تلك الرواسب بقايا النبات المعاصر لنا والحيوانات التي تُرى في زماننا الحاضر

وكذلك يمكن ان نفترض انّ انقلاباً أرضيًّا آخر مع طغيان عرمرميّ يحلّ على قسم من البلاد ويكسوها حمأةً كثيفة فيُطمَر معها النبات والشجر والحيوان المنتشر في تلك الانحاء.

فمثل هذه الانقلابات قد حدثت في العصور القديمة بعضها بطوارئ شديدة فاجئة وغيرها بفعل الازمنة البطيء والرواسب المتوالية فانطمرت قارات ارضيَّة قديمة تحت المياه وطفا غيرها ناتئاً من قعر البحار حتّى يجوز القول انّ كلّ اقسام الارض وقاراتها كانت تارةً في اعماق البحار وتارةً مرتفعةً عنها. وما يُرى فيها من انواع النبات والحيوان المستحجرة في طبقات بلاد مختلفة يدلّ على ما كان شائعاً منها في اطوار معلومة برًّا كان او بحرًا. وبعض هذه الطبقات سميك جدًّا حتّى انّ منها ما يُعَدّ من جبال المعمور ويبلغ سمك رواسبها في بعض الطبقات الى نحو خمسين كيلومترًا

فهذه سجلّات تاريخ ارضنا مدفونة في طبقاتها المختلفة ويكفي لمعرفة اقدم ما ظهر على ارضنا من المواليد الطبيعيَّة ان نفحص تلك الطبقات مباشرةً واقربها الى قشرة الارض الاوّليَّة الى اعلاها واقربها عهدًا منّا. ومن هذا الفحص يمكن اثبات او نفي ما يدّعيه الدرويينيّون بانّ في اوّل الخليقة لم يكوّن البارئ على الارض الّا بعض امثلة النباتات والحيوانات التي منها تسلسلت في تتابع الاجيال بقيَّة انواع النبات والحيوان. ويقتضي ذلك وجود هذه الامثلة في اعمق طبقات الارض واقدم رواسبها ثمّ وجود تفرُّعاتها بالتسلسل الى أيامنا في الطبقات المستحدثة

وكذلك لو صحّت مزاعم هِكل والماديين بقولهم انّ الحياة ظهرت من تلقاء ذاتها في بعض الخلايا التي منها تولّدت تدريجاً مواليد النبات ثمّ مواليد الحيوان لانبغى وجود آثار هذا التسلسل في طبقات الارض بحيث نجد اصغرها وابسطها في الطبقات

السفلى ثمَّ اكبرها واكملها في الطبقات العليا

وقد وضع الجيولوجيُّون لهذه الطبقات الارضيَّة اسماء خاصَّة تسهيلًا لدرسها. فالرواسب الحديثة التي اخذت تتكوَّن قبل خليقة الانسان بزمن طويل الى ايامنا هذه تُدعى على اصطلاحهم بطبقة الارض الرابعة (terrain quaternaire) وتحتها بالتدريج الطبقات الثالثة ثم الثانية ثمَّ الاولى التي اقدم رواسبها تعتمد الى قعر الارض الاصلي

ثم يقسم الجيولوجيُّون هذه الطبقات الاربع الى صفائح ممتازة لكل صفيحة منها اسمها الخاص تُعرَف بجنس صخورها وبانواع المستحجرات الموجودة في باطنها دون غيرها

فانَّ بقايا الحيوانات الموجودة في الطبقة الاولى الأبعد عمقاً هي حيوانات بحريَّة اكثرها عديم الفقرات . اما النبات فيُرى منهُ باسفل الطبقة بعض اجناس الحُثّ (algue) البحري ثمَّ فوقهُ في طبقاتهِ المرتفعة عددٌ لا يُحصى من الاشجار العاديَّة المختلفة الاجناس التي طُمرت بانقلاب الارض ظهرًا لبطن وهي مستودعات الفحم الحجري كنز صناعتنا حاضرًا

وفي صفائح الطبقة الثانية معظم ما وجد فيها من الحيوان زحافات اكثرها مائيَّة عظيمة الاجرام يبلغ طول بعضها من ١٥ الى ٣٠ بل ٤٠ مترًا وكلُّها ذوات اسنان

وفي صفائح الطبقة الثالثة وجدوا عددًا عديدًا من الحيوانات ذوات الاثدي البالغة الكبر منها الطيور العظيمة . اما النبات فما وُجد منهُ هو من ذات الفلقتَيْن (dicotylédonées) وفي احدث صفائحها تُرى الحيوانات المجترَّة ثمَّ اصناف القرود ثمَّ اجناس الفيلة التي لم يُعرف منها في عهدنا الَّا جنس واحد

واخيرًا الطبقة الرابعة وقد وُجدت فيها حيوانات متعدِّدة اكثرها باقٍ الى يومنا وفي آخرها جميعاً يظهر الانسان

فمن هذه الخلاصة التي انتزعناها من كتب الجيولوجية يلوح انَّ الحياة لم تظهر اوَّلًا كما يزعم الماديّون على صورة خلايا غاية في البساطة بل على صورة نباتات وحيوانات تامَّة البنية ذات نوع معلوم. فانَّ في اقدم طبقات الأرض وُجدت حيوانات

بحريّة يدور الدم في شلوشها وعروقها مجهّزة بالاعصاب وبأجهزة تنفّسيّة الخ . اما النبات فاقدم ما وُجد منهُ بعض اشكال غير واضحة التركيب . ثم يليها دون وسيط بين الجنسين تلك النباتات والاشجار العاديّة اصل فحمنا الحجري . وكلّ هذه المواليد العريقة في القدم نباتيّة كانت او حيوانيّة تدهش الناظر باختلاف اجهزتها وانسجتها وصورها ولا شيء فيها يدلُّ على انها كانت مسبوقة بأمثلة اخرى خلفتها . وكثير من اجناس تلك المواليد قد صبر على الدهور فبلغ الى عهدنا

نعم انهُ وجدت بعد ذلك اجناس جديدة على مدى الاجيال الّا انهُ لا يوجد بينها وبين ما سبقها علاقة تدلُّ على انها تولّدت منها . بل لكل جنس خواصهُ في نموهِ فالبعض منها نما وازدهر مدّة قرون عديدة والبعض الآخر بعد ظهوره زمناً معلوماً لا تعود تجد لهُ اثراً او لم يبقَ منهُ الّا انواع قليلة في الازمنة التالية

وكذلك ترى من جانب آخر رُتَباً كاملة من الحيوانات تظهر في وقت معارم بكامل أهبتها ومميزاتها دون ان تجد في ما سبقها انواعاً يستطاع القول عنها انها منها تفرّعت كما انها اذا فنيت لا ترى لها خلفاً يمكن القول عنهُ انهُ من مواليدها

هذا ولا ننكر انَّ في ظهور الكائنات المتوالي بعض الترقي من حيث كمال تركيبها من اجناسها المختلفة فانَّ ارباب الطبيعة يعتبرون الحشّ والنبات العديم الزهر انقص كمالاً من النباتات ذوات الفلق الواحد وهذه دون النباتات ذوات الفلقين . وقد وجدوا في طبقات الارض اوّلاً الحشّ البحريّ ثم النبات العديم الزهر الذي منهُ الخنشار العظيم الشكل في الاراضي الفحميّة ثم الاشجار المخروطة الشكل كالسرو وهي ذات فلق واحد وفي الاخير الاشجار ذات الفلقين وهو الترتيب النظاميّ الذي يتبعهُ الجيولوجيّون في تقاسيمهم . ولكن هذا النظام المتوالي لا تُرى بين حلقاتهِ علائق تدلّ على التحام قسم بآخر بل تُرى هذه الاقسام مستقلّة ظاهرة بكمالها دون اجناس انقص فأكمل تجتاز بها الى بلوغ كمالها

وكذلك الحيوان يظهر من آثارهِ المستحجرة في طبقات الارض بعض الترقي اذ ظهرت اوّلاً الحيوانات المائيّة العديمة الفقرات ثمّ ثانياً الزحّافات الكبيرة وكبار الطيور ذوات الاسنان . ثمّ ثالثاً الحيوانات ذوات الاثدي كالفيل والقرد ثمّ الانسان الّا انهُ لا يوجد علاقة بين هذه الرتب ولا شيء يمكن اعتبارهُ كتوطئة لجنس آخر

يأتي بعده فانَّ في هذه المستحجرات رُتباً كاملة وعلى الاقلّ اجناساً ظهرت في طبقات الارض بعدد عديد. منها جنس الصدفيات المعروفة بأمونيت (ammonites) البالغ انواعها اربعة آلاف نوع وكلُّها قد فنيت دون ان يتولَّد منها اجناس لاحقة بها كما انَّها ظهرت دون ان يوجد قبلها اجناس تفرَّعت هي منها

فهذه نتائج المعلومات الجيولوجيَّة سوف تمهِّد لنا الحكم على مزاعم الدروينيين والماديين في آرائهم عن ظهور الحياة ونموّها على وجه الارض. لا بل نستطيع ان نقول مع احد اراكنة علم الطبقات الارضيَّة المسيو دي لاپاران (M^r de Lappa-rent) مستشهدين بقوله الآتي: يظهر من درس تاريخ كُرتنا الارضيَّة انَّ الحياة لم تدخلها بالتدريج وبترقي اجهزة الحيوانات بتوالي الازمنة. بل ظهرت بقدر ما يمكننا ان نبدي حكمنا في ذلك في وقت واحد بظهور اجناس شتَّى حاصلة على كلّ الكمال الذي تحتمله الاحوال المحدقة بها. فكفى بهذا نفياً لمذهب القائلين بترقي المخلوقات وتسلسلها (له تابع)

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني عشر

العادات النصرانية بين عرب الجاهلية وفي اوَّل الاسلام (تابع)

العادات الدينية (تتمة)

﴿ استلام الحجر الاسود ﴾ ومن المعلوم انَّ المسلمين اذا حجُّوا الى الكعبة وطافوا حولها استلموا الحجر الاسود الذي فيها ولعلَّهم يفعلون ذلك اقتداء بنبيِّهم.